تأملات في سورة يس

قلب القرآن

الدكتور حسن محمد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
جامعة أم القرى - بمكة المكرمة

تأملات في
سورة يس

تأليف

الدّكتور حسن محمّد باجوده

أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الحادية عشرة
طبعة منقحة

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مؤسسة مكة للطباعة والإعلام (مطابع الندوة) ☎ ٥٢٠٣٠٥٤
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

تصريح وزارة الإعلام
بمكة المكرمة
رقم ١٣٦٣ / ٢ / م
وتاريخ ٩ / ١١ / ١٤١٢هـ

مُقدّمَة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد. هذه الدراسة المتأملة، للسورة المكية الكريمة سورة يس، قلب القرآن الحكيم، كما لقبها سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه استهدفت تبيين القضايا التي تعالجها هذه السورة المباركة، والأقسام التي تتكون منها، ومظاهر الإعجاز الأسلوبي فيها، والأسباب التي جعلت في هذه السورة الكريمة الفضائل المتعلقة بها، حتى إنها لقبت بقلب القرآن الكريم، وقد قال رسول الله ﷺ: إن في القرآن سورة يشفع قارئها ويغفر لمستمعها ألا وهي سورة يس.

وقد أمكن تقسيم السورة إلى ستة أقسام، كما تبين أنها تتحدث في قضايا ست، كلها تخدم غرضاً واحداً، هو إرساء دعائم عقيدة التوحيد بعبادة الله وحده لا شريك له. أما القضايا الست فهي الرسول الكريم، والقرآن الحكيم، والأتباع المؤمنون، والقوم الكافرون، وقضية البعث بعد الموت وفي السورة إلحاح بعيد المدى على هذه القضية حتى إنه ليمكن القول إن هذه القضية المحور الذي تدور حوله السورة. وأخيراً لفت انتباه كفار مكة منكري البعث إلى ضرورة إعادة النظر في موقفهم الخاطىء وذلك بوسيلتين. الوسيلة الأولى ضرب المثل بالقرية الظالمة التي أهلكها الله تعالى وتوشك أن تكون نهاية المكيين مماثلة للتماثل بين الموقفين. والوسيلة الثانية التنبيه إلى العديد من آيات الله تعالى

الدالة على قدرته، وهذه الوسيلة تستأثر بحيز طيب من السورة المباركة التي تصبغ من أولها إلى آخرها بصفتي العزة والرحمة اللتين جاءت الإشارة إليهما في القسم الأول من السورة في قوله تعالى: ﴿ **تنزيل العزيز الرحيم** ﴾.

لم تشأ إرادة الله تعالى استئصال شأفة كفار مكة، إنما شاءت إقامة الحجة البالغة عليهم فأمهلتهم ونبهتهم إلى العديد من مظاهر قدرته عزوجل. والحقيقة أن التنبيه مشوب بشيء غير قليل من الحدة في التعبير والرهبة في المعاني والأفكار، ومن هنا كان الحديث عن الفئة المؤمنة محدوداً، لكنه حديث شاف وكاف. الغالبية آنذاك كافرة، والقلة مؤمنة، والهدف إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ومن هنا كان الإلحاح في السورة على قضية البعث بعد الموت وتحذير الكافرين المنكرين للبعث من التمادي في الباطل، في لهجة حادة، وتقليب للفكرة على وجوهها المختلفة.

إن السورة باختصار تشد المؤمن إلى خالقه شداً، وتجعل علاقته به عز وجل متينة، تزهده في الحياة الدنيا، فهي ليست أكثر من طريق للعبور، فينبغي أن يسير الإنسان في الصراط المستقيم الذي يسير فيه المصطفى ﷺ ويدعو إليه، وهو الذي نزل عليه من العزيز الرحيم القرآن الحكيم في أسمى طرق الوحي. كما تحبب السورة الإنسان في الجنة وتنفره من النار فهناك بعث فحساب، قال تعالى ﴿ **إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾.

فالمؤمن حينما يتلو هذه السورة المباركة أو تتلى عليه يحس في أعماقه بأن عليه أن يعمل كل خير في حياته كي يثاب عليه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وحينما يتلوها أو تتلى عليه وهو في سكرات الموت، يحس في أعماقه بأنه مقبل على دار الراحة والطمأنينة والجزاء الأوفى، مقبل على

الدار التي هي خير من الأولى بنص القرآن الحكيم. وهكذا ترجع نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية بإذنه عز وجل. وربما كانت هذه هي الأسباب التي جعلت لهذه السورة المباركة الفضائل المتعلقة بها بشأن من يقرؤها أو تقرأ عليه من الأحياء، ومن تقرأ عليه من الأموات.

وأثناء دراستنا المتأملة للسورة وقفنا ملياً عند خصائصها الأسلوبية، كالعودة الدائمة في الحديث إلى المعنى السابق، أو البناء الهرمي للمعاني وللمعنى الواحد، أو أساليب القصر والاستفهام والشرط، أو توزيع آيات القسم توزيعاً متساوياً على القضايا التي يعرضها القسم، أو لفت الانتباه أخيراً إلى آية دالة على قدرة الله تعالى معروفة لكل الناس كي يقيسوا ما عرفوا على الذي لما يعرفوا بعد من آيات دالة على قدرته تعالى عرض السياق لها أَوَّلاً. إلى غير ذلك من خصائص أسلوبية.

وأود أن أقول شيئاً يعرفه الجميع هو أن المتأمل لكل آية في القرآن الكريم يجد عنده ميلاً شديداً لأن يتكلم عن كل لفظة بل جوهرة ينتظمها عقد هذه الآية الكريمة أو تلك. وهذا شيء لاصق بالقرآن الحكيم. ومن هنا يمكن القول إننا بصدد بحر لا تنفد عجائبه. كما يمكن القول: إن النفس التي باركها الله عز وجل هي فقط التي قد تستطيع أن تغترف غرفة من ذلك البحر اللجي.

وبشأن هذه الدراسة المتأملة لهذه السورة المباركة أقول ما سبق أن قلت عما ماثلها من دراسات: إنني أشهد الله عز وجل أني لم أشأ لحظة من اللحظات أن أحمل حرفاً واحداً من القرآن الكريم ما لا يحتمل. ومن كانت له أيُّ ملاحظة على هذه الدراسة فلا يتردد في إعلانها، فالحق أحق أن يتبع.

وفي الختام أسأل الله عز وجل أن يتقبل منا صالح الأعمال: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تَحْمل علينا إصْراً كما حملته على الذين

من قبلنا، ربَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طَاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

د. حسن محمد باجوده

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
جامعة أم القرى
بمكة المكرمة

مكة المكرمة يوم الأربعاء الثانى عشر من شهر صفر عام ١٣٩٤هـ

توطئة

هذه السورة المباركة سورة يس، مكية، باستثناء آية واحدة هي الآية الخامسة والأربعون، قال تعالى ﴿ **وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون** ﴾ ومعنى هذا أن سورة يس، كسائر المكي من القرآن، تعالج أسس العقيدة والقضايا المتعلقة بها.

ونستطيع أن نقول، إن هذه السورة الكريمة تتحدث في قضايا ست رئيسية، كما أنه أمكن تقسيمها إلى ستة أقسام، يأخذ بعضها برقاب البعض الآخر، وتتجانس فيها تلك القضايا.

أما القضايا الست، التي تتحدث فيها السورة، فهي على النحو التالي.

١ ـ الرسول الكريم ﷺ.
٢ ـ معجزته الكبرى الخالدة، القرآن الحكيم.
٣ ـ الفئة القليلة أول الأمر المؤمنة من أتباعه عليه الصلاة والسلام.
٤ ـ الفئة الكثيرة أول الأمر الكافرة من قومه عليه الصلاة والسلام
٥ ـ قضية البعث بعد الموت.
٦ ـ حث المكذبين للرسول ﷺ المنكرين للبعث، على تصحيح موقفهم الخاطىء وتم ذلك عن طريقين.

أ ـ ضرب المثل بالقرية الظالمة التي أهلكها الله عز وجل ويوشك أن تكون عاقبة المكيين مماثلة للتماثل في الموقف.

ب ـ لفت انتباه هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ المنكرين للبعث إلى عدد من آيات الله تعالى الدالة على قدرته المطلقة عز وجل.

وأما الأقسام الستة فهي على النحو التالي:

١ ـ الاثنتا عشرة الآية المتقدمة من السورة وفيها يتم الحديث عن كل القضايا باستثناء القضية السادسة.

٢ ـ الآيات التي يضرب فيها المثل بالقرية الظالمة التي أهلكها الله عز وجل، وتنتهي بنهاية الآية الثلاثين.

٣ ـ القسم الذي يلفت انتباه كفار مكة منكري البعث إلى ثلاث من آيات الله تعالى الدالة على قدرته، وينتهي هذا القسم بنهاية الآية الرابعة والأربعين ومهد له بالحديث عن إهلاك الكافرين وجمعهم يوم القيامة.

٤ ـ القسم الذي يصور موقف كفار مكة المنكرين للبعث من عدد من القضايا في الحياة الدنيا وموقفهم المخزي يوم القيامة بعكس المؤمنين المتقين، والذي يبين ما كان بالإمكان أن يحل بهم في الحياة الدنيا. وينتهي هذا القسم بنهاية الآية السبعين.

٥ ـ القسم الذي يلفت انتباه المكذبين إلى نعمة الله تعالى على الناس بخلق الأنعام من أجلهم، ومع ذلك هم يتخذون من دون الله تعالى آلهة ويطلب منه ﷺ ألا يحزن لأقوالهم وأفعالهم. وينتهي هذا القسم بنهاية الآية السادسة والسبعين.

٦ ـ القسم الأخير من السورة الذي يبين موقفاً لواحدٍ من هؤلاء المكذبين المنكرين للبعث، وتسيطر قضية البعث بشكل واضح على هذا القسم من السورة وبالإشارة إليها تختم السورة المباركة.

مما سبق يتضح أن القضايا التي تتحدث عنها السورة، يمكن أن يتوالى وجودها في أكثر من قسم في السورة.

القِسمُ الأول

المؤمنون بالقرآن الحكيم
والرّسول العظيم لهم أجر كريم
الآيات (١ - ١٢)

الاثنتا عشرة الآية المتقدمة من سورة يس، تمثل كتلة واحدة متماسكة، من أهدافها تسلية المصطفى ﷺ وقد ذهبت نفسه حسرات على عدم إيمان أكثر قومه بأنه رسول رب العالمين، لإخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، ومن أهم أسباب ذلك أن عقلهم قاصر عن تصور البعث بعد الموت والنشور، مع أنهم خلقوا ولم يكونوا من قبل شيئاً. وقد تحدثت هذه المجموعة المتماسكة من الآيات عن المصطفى ﷺ الذي بعثه الله تعالى بالحق بشيراً ونذيراً. وأوحى إليه من عنده القرآن الحكيم، بقصد إنذار قومه ﷺ الغافلين، لأنهم لم يبعث إليهم من فترة رسول. ولم تشأ إرادته تعالى أن يصغي كثير منهم لصوت الحق، تمشياً مع قوله تعالى [1] ﴿ **وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾.

وقد صورت الآيات أبدع تصوير هذه الفئات التي لم يجد نور الحق ولا صوته إليها طريقاً. فلا فرق بعد ذلك أن ينذرهم المصطفى ﷺ أو يكف عن إنذارهم لأنه لا فائدة ترجى منهم مطلقاً، إنما ترجى الفائدة من الذين اتبعوا الذكر وخشوا الرحمن بالغيب وآمنوا بالبعث بعد الموت، فلهؤلاء مغفرة وأجر كريم، أما المنكرون للبعث فلهم عذاب شديد.

---

(١) سورة هود، ١١٩.

قال تعالى ﴿ يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين، على صراط مستقيم، تنزيل العزيز الرحيم، لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون، لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون. إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم، إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في أمام مبين ﴾.

مطلع السورة:

وفي سبيل تبيين معنى القول «يس» نحن بحاجة إلى أن نتلو الآيات الست الأول. التي تشير إلى أكثر العناصر التي تتحدث عنها المجموعة الأولى المتماسكة من الآيات. قال تعالى: ﴿ يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين، على صراط مستقيم، تنزيل العزيز الرحيم، لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾. والشيء الذي نود التنبيه إليه، والذي نعتقد أن له دوراً في تبيين المعنى المراد من القول «يس» هو أننا بصدد طريقة في التعبير واحدة. فنحن دائماً بصدد العودة إلى الحديث في الموضوع السابق وفق نسق معين ونظام بديع. فلو ذهبنا إلى أن «يس»، من أسمائه ﷺ، وهذا هو الرأي الراجح في اعتقادنا ـ خاصة وأن هذه ليست المرة الوحيدة التي تبدأ سورة باسم من أسمائه عليه الصلاة والسلام، فهناك مثلاً قوله تعالى خطاباً له ﷺ: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ ـ لاستطعنا أن نثبت هذه العودة في الحديث إلى الموضوع السابق وقلنا: إنَّ هناك إشارة إلى المصطفى ﷺ ثم عودة له عليه الصلاة والسلام. وهناك إشارة أخرى إلى القرآن الحكيم ثم عودة إليه على أثر العودة للحديث عنه ﷺ. وهناك عودة ثالثة إلى المصطفى ﷺ الذي ينذر قومه بهذا القرآن، وكأننا بصدد عودة ثالثة أيضاً من نصيب القرآن الحكيم. ثم يفيض الحديث

بعد ذلك عن الغافلين من قومه عليه الصلاة والسلام. وبمراعاتنا لخاصة العودة في الحديث إلى الموضوع السابق وبقولنا إنَّ يس، من أسمائه ﷺ تكون كل آيات القسم الأول من السورة داخل إطار القضايا الخمس، من القضايا الست التي تتحدث فيها السورة.

القرآن الحكيم:

الآية الثانية ﴿ **والقرآن الحكيم** ﴾ تبين لنا أن رب العزة يقسم بالقرآن الحكيم أن المصطفى ﷺ من المرسلين. وقد وصف القرآن الكريم بصفة تخص العقلاء، لأن كل جزئياته ينظمها عقد الحكمة. وكيف لا تكون تلك صفته وهو الكلام الموحى به من لدن حكيم. وإنما سمي القرآن قرآناً لأنه يقرأ في المحاريب ويتلى في المتعبدات.

وفي الآية الخامسة ﴿ **تنزيل العزيز الرحيم** ﴾ عودة للحديث عن القرآن الكريم وإثبات أنه تنزيل العزيز الرحيم. قال تعالى في سورة الشعراء [1] ﴿ **وما تنزلت به الشياطين، وما ينبغي لهم وما يستطيعون، إنهم عن السمع لمعزولون** ﴾ وقال تعالى [2] ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين** ﴾.

ونود بشأن هذه الآية الكريمة ﴿ **تنزيل العزيز الرّحيم** ﴾ أن نقف ملياً عند هذين اللفظين المتعلقين بالذات العلية ﴿ **العزيز الرحيم** ﴾ وأول ما يلاحظ هو أن هذين اللفظين الوحيدان اللذان جاءا في هذا القسم الأول من السورة بشأن الفعال لما يريد. ونحب أن نقول بشأن مجيئهما في هذا الموضع دون سواهما، إنهما يلقيان ضوءاً كبيراً على الكثير جداً من الآيات في هذه السورة المباركة التي تتجلى فيها قدرة الفعال لما يريد وعزته، ورحمة البر الرحيم التي وسعت كل شيء. وإليك بيان ذلك.

(١) آيات ٢١٠ - ٢١٢.

(٢) سورة الشعراء، ١٩٢ - ١٩٥.

الحقيقة أن في هذه السورة تلاحماً في التعبير عن مدى قدرته عز وجل ورحمته. وتفسير ذلك هو أن هذه السورة مكية، من أهم أهدافها إرساء أسس العقيدة. وحيث إن إرادته عز وجل شاءت ألا تعاجل المكيين المكذبين للرسول ﷺ المنكرين للبعث بالعقوبة وذلك من مظاهر رحمته تعالى بعباده، فإن رحمته عز وجل لم تقف عند هذا الحد، إنما تجاوزت ذلك إلى إغراء هؤلاء المكيين المرة تلو المرة بإعادة النظر في موقفهم الخاطىء من الدعوة إلى الله. وفي هذه السورة اتخذ الإغراء صورتين، هما مظهر لعزته عز وجل ورحمته. المظهر الأول ضرب المثل بالقرية الظالمة التي أهلكها الله تعالى، وفيه تتجلى قدرة القادر على كل شيء، كما تتجلى رحمته، إذ لم يعاجل المكيين بالعقوبة، والمظهر الثاني لفت انتباه كفار مكة إلى الكثير والكثير من آيات الله تعالى الدالة على قدرته، ولو أنصف المكيون في النظر والتدبر لغيروا من موقفهم الخاطىء، واتبعوا الرسول النبي الأمي ﷺ، ومن آيات الله تعالى الدالة على عزته وجبروته وعلى رحمته بعباده، والتي عرضت لها هذه السورة آيات المكان والزمان وحمل الإنسان فوق الماء وخلق الأنعام والإنسان والسموات والأرض، إلى غير ذلك من آيات نبه إليها كفار مكة المنكرون للبعث، وكل ذلك من مظاهر رحمته عز وجل.

ونستطيع أن نقول بشأن هذه الآية في سورة يس ﴿ **تنزيل العزيز الرحيم** ﴾ إنَّ من أهدافها الرد على أولئك الذين يقولون عن القرآن الكريم إنَّه ضرب من الشعر. ومعروف أن في هذه السورة الكريمة رداً على هؤلاء، وذلك في قوله تعالى[1] ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين** ﴾.

الرسول الكريم واحد من المرسلين:

الآيتان الثالثة والرابعة اللتان تتحدثان عن الرسول الكريم ﴿ **إنك لمن المرسلين، على صراط مستقيم** ﴾ شهادة من الحق جل وعلا بأن محمّد بن

(١) آية، ٦٩.

عبد الله ﷺ واحد من المرسلين، وهم جميعاً على صراط مستقيم واحد، لأنهم مبعوثون من إله واحد لغاية واحدة، هي إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، كي يعبدوا الله عز وجل حق العبادة ويثابوا على ذلك في اليوم الآخر.

والآية السادسة ﴿ **لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون** ﴾ تعين السبب الذي من أجله بعث رسوله المصطفى ﷺ وأوحى إليه القرآن الحكيم، ألا وهو إنذار قومه الذين لم يأت آباءهم ومن في حكمهم نذير. وكانت النتيجة أنهم جميعاً غافلون عن معرفة السبب الذي من أجله خلقهم الله تعالى. . قال عز من قائل خطاباً لهؤلاء: (١) ﴿ **أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ وقال تعالى في تبيين السبب الذي من أجله خلق الجن والأنس(٢) ﴿ **وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ واستتبع تلك الغفلة الخروج إلى مهاوي الردى والانسياق وراء الشهوات.

الذين حق عليهم القول بدخول جهنم:

الآيات الأربع التاليات تبين موقف هؤلاء المنذرين من النبي ﷺ، وأكثرهم مكذبون. قال تعالى: ﴿ **لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون، إنَّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾.

والآية الأولى تشير ضمناً إلى أن المصطفى ﷺ قد بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة، وكان لقومه الناصح الأمين. ولكن إرادته عز وجل شاءت ألا يؤمن

---

(١) سورة المؤمنون، ١١٥.

(٢) سورة الذاريات، ٥٦ ـ ٥٨.

له ﷺ إلا القليل، ولذلك حق عليهم القول بدخول جهنم: جاء في سورة هود [1] قوله تعالى ﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾.

وحيث إن المراد بالقول الذي جاء في هذه الآية من سورة يس، هو ملء جهنم، كما جاء في سورة هود، فإنا نود أن نوضح بهذه المناسبة المراد من قوله تعالى ﴿**لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين**﴾ وذلك لعلاقة هذا القول المتينة بآية سورة يس ولأن جوهر القضية في المناسبتين واحد.

لقد اقتضى عدل الله تعالى وحكمته ألا يؤاخذ الناس إلا بعد إنذارهم وإرشادهم إلى طريق الهدى والفلاح قال تعالى [2] ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ وقد سبق في علمه تعالى الموقف الذي سيقفه قوم هذا الرسول أو ذاك بمحض إرادتهم من الدعوة إلى الله تعالى، كما سبق في علمه تعالى أن كثيراً من قوم كل رسول سيقفون من الدعوة إلى الله تعالى موقف المناهض لها المعادي من الرسول. ومعروف العقاب الذي يستحقه أولئك وقد عبر عنه في مثل قوله تعالى: ﴿ **لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ وإذا كان بعض أولئك الذين يستحقون هذا العذاب لما يوجدوا بعد في هذه الحياة الدنيا، فإن موقفهم في المستقبل معلوم تماماً للذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه. فمثل هذا القول: ﴿ **لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ يدل من ناحية على علم الله تعالى التام، وليس للزمن بالنسبة لذلك العلم التام من وجود مطلقاً. ويدل من ناحية أخرى على أن العقاب الذي سيحل بأولئك المكذبين هو العدل عينه، لأنهم ينالون ما يقابل أعمالهم التي قاموا بها بمحض إرادتهم واختيارهم

---

(١) آية ١١٨، ١١٩.

(٢) سورة الإسراء، ١٥.

بعد أن استبانت لهم طريق الخير والفلاح وطريق الشر والضلال فاختاروا جهلاً منهم وسفهاً الطريق الأخرى ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾ [1].

وهذه الآية التي نحن بصددها لتوحي بأن هناك كلاماً سيأتي عن القلة المؤمنة، وهذا ما حدث بالفعل، بعد الآيات الأربع مباشرة.

والذي راعنا بشأن الآيات الثلاث الباقيات، البناء الهرمي للمعاني، ولكل معنىً على حدة. قال تعالى: ﴿ **إنَّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون، وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾.

ونود أن نوضح أول الأمر حقيقتين الأولى هي أن جوهر هذه الآيات الثلاث امتداد لما تبيناه بشأن قوله تعالى: ﴿ **لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون** ﴾ فإذا كان الفعل قد أسند إلى الذات العلية، فما ذلك إلا لأنه سبق في علمه عز وجل موقف هؤلاء المكذبين مستقبلاً من الدعوة إلى الله تعالى، والثانية هي أن لهؤلاء الكافرين المنكرين للبعث موقفاً معيناً من الدعوة، هم يعتبرونه ربحاً وإحسان صنع بينما هو في حقيقته خسارة وضلال سعي.

فما معنى ﴿ **مقمحون** ﴾ هذه اللفظة ترتبط بالبعير أساساً حينما يرفع رأسه عند الحوض ويمتنع عن الشرب لداء أو بَرْد، يقال: قمح البعير قموحاً إذا صدرت منه هذه الحركة ثم استعملت اللفظة بشأن الإنسان، فإذا رفع رأسه وغض بصره وبأنفه شمخ يقال قد أقمح [2].

مما سبق يتضح أن معنى القول ﴿ **فهم مقمحون** ﴾ فهم رافعو رؤوسهم

---

(١) سورة الحج، ٤٦.

(٢) انظر القاموس.

كبراً وتيهاً مغمضو أعينهم، وبما أنهم مخطئون وهم لا يشعرون. لذلك يمكن القول: إن قوله تعالى ﴿ **فهم مقمحون** ﴾ يفيد معنى شبيهاً بقوله تعالى عن الأخسرين أعمالاً[1] ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** ﴾.

وفي إمكاننا أن نقول: إنَّ كل آية من الآيات الثلاث تتعرض لوسيلة معينة، كان بالإمكان أن ينتفع بها هذا المكذب أو ذاك، لو أن الله تعالى قدر له الهداية. الآية الأولى تتعرض للحركة التي كان في إمكان هؤلاء أن يقوموا بها مشعرين بقبولهم للدعوة ورضاهم عنها. ولكن ذلك لم يحدث من ناحيتهم مطلقاً. والآية الثانية تتعرض لحاسة البصر التي لها في العادة دور كبير جداً في مثل هذه الأحوال، بقصد تبيين طريق الهدى والسير فيه، ولكن الانتفاع بهذه الحاسة لم يحدث كذلك. والآية الثالثة تتعرض للحاسة الثانية والأخيرة التي لها في العادة دور كبير في مثل هذه الأحوال، يلي دور حاسة البصر، لسماع صوت الحق، والتعرف عليه، والسير نحوه، والعمل بمقتضاه. ولكن ذلك لم يحدث من ناحيتهم كذلك.

وبعد هذا القول المجمل نتحول إلى شيء من التفصيل بشأن الآيات الثلاث. لقد راعنا في هذا التصوير البناء الهرمي للمعاني ولكل معنى على حدة، إذ لا يمكن بحال من الأحوال أن يتغير ترتيب هذه المعاني أو البناء الهرمي لكل معنى.

الآية الأولى ﴿ **إنَّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون** ﴾ تريد أن تقول: إنَّ هؤلاء القوم وقفوا من الدعوة إلى صراط العزيز الحميد موقف المتكبر المتغطرس، جهلاً منهم وحمقاً، فاستحقوا بناءً على ذلك أن يستعار لتصوير موقفهم الخاطىء، تلك الحال التي لا يحسدون عليها والتي

---

(١) سورة الكهف، ١٠٣، ١٠٤.

وضعوا أنفسهم فيها أو في وضع لا يختلف في حقيقته عنها وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. وتلك هي حال الأسير العاني وقد وضع في عنقه الغل العريض الذي يشدّ بدوره اليدين إلى العنق شدّاً. وعليه يكون القول: «فهي» عائداً إلى الأيدي رغم عدم ذكرها بصريح اللفظ لأنَّ الغلَّ نوعٌ من القيد يجمع بطبعه بين اليدين وبين العنق ففي ذكر الأعناق هنا ذكرٌ ضمنيٌ للأيدي.

وبسبب هذا الموقف من الدَّعوة أضاع هؤلاء على أنفسهم كل فرصة للتلفت بحثاً عن الحقيقة، فلا يستطيعون أن ينظروا إلا في اتجاه واحد، ومع ذلك فإنهم أغمضوا أعينهم.

وهؤلاء الذين لا يستطيعون أن ينظروا إلا في اتجاه واحد حيث التكذيب وإنكار البعث، كيف يمكن لهم أن يصلهم العلم الصحيح لو أن الله تعالى قدر لهم الهداية؟ يصلهم عن طريق نور من الأمام أو الخلف، أو عن طريق صوت للحق ينزل من أنفسهم منزل الرضى والقبول. والآيتان التاليتان تشيران إلى ذلك قال تعالى ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون. وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾.

والآية الأولى تتعامل مع حاسة البصر، وهي الحاسة التي تتقدم سواها في مثل هذه الحال، لأن البصر أبعد مدى وأسرع حركة وأوسع انتشاراً خاصة وأن الإبصار المشار إليه في الآية لا يتعامل في الحقيقة مع الأبصار، إنما يتعامل مع البصيرة، مع القلوب التي في الصدور. وإن السدين من أمام المكذبين ومن خلفهم، سدان معنويان. فهما لا يتعاملان في الحقيقة مع النور الذي تراه العينان، إنما يتعاملان مع نور الفؤاد.

وما دام الحديث الآن عن حاسة البصر فمتى تعمل هذه الحاسة ومع ماذا هي تتعامل؟ إنها تعمل في النور ومعه تتعامل، وبما أن الحديث هنا يدور حول

الهداية والضلال، والتعامل مع حاسة البصر التي تعمل في النور، إذن فليستعر النور الذي تتعامل معه العينان رمزاً لنور الإيمان الذي تتعامل معه النفس. فإذا كان الحديث في ظاهره عن النور الذي يرى بالعين فهو في حقيقته عن النور الذي ينزل برداً وسلاماً على النفس وفي الفؤاد.

ولو أردنا لحاسة الإبصار أن تعمل عند هذا المُقْمَح الذي لا يستطيع أن ينظر ـ لو شاء ـ إلا أمامه، فعلينا أن نجعل النور أمامه فقط، لأنه لا يستطيع أن يراه لو كان عن يمينه أو يساره أو خلفه. وفي هذه الحال أما أن يكون النور الذي أمامه بازغاً أمام عينيه أو يكون قادماً من خلفه.

ولو تمثلنا نوراً يصدر من اتجاهين مختلفين أحدهما من الأمام والآخر من الخلف فالعادة جرت بأن يطغى النور الذي يصدر من الأمام على النور الذي يأتي من الخلف. وهذه الحقيقة نبهت إليها الآية، حيث قدمت الحديث عن ذلك النوع من النور على الحديث عن النوع الآخر، قال تعالى: ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً** ﴾.

فهذا السد المنيع الذي وضع بين يدي القوم أو الذي وضعوه هم أنفسهم بين أيديهم، حال تماماً بينهم وبين النور أن يصلهم. وما دام النور القادم من الأمام قد حجب تماماً. ففي هذه الحال يبزغ النور الآخر. القادم هذه المرة من الخلف. وحيث إن القوم لم ينتفعوا من كل الأنوار، فهم بمنزلة الذين وضع من خلفهم سد منيع آخر، يحول تماماً بينهم وبين النور أن يصلهم.

وما دام النور لم يصل القوم، لذلك أمسوا في ظلام دامس، وحيث إنه قد استعير النور دليلاً على نور الهداية، والسد الحسي دليلاً على عدم انتفاع القوم من نور الهداية الذي جاء به النبي ﷺ بل حاولوا إطفاءه كيلا ينتفع منه الآخرون، لذلك حسن استعارة الغشاوة الحسية، الموضوعة على أعين هؤلاء

المكذبين. رمزاً للغشاوة المعنوية التي وضعوها على أعينهم كيلا يصلهم نور الهداية. والنتيجة الحتمية أن أولئك لا يبصرون بأعينهم. وهؤلاء لا يبصرون ببصائرهم، وجاء بشأن ذلك قوله تعالى: ﴿ **فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾.

وحيث إنَّ حاسة البصر قد عطلت عن العمل، فالعادة جرت بأن تعمل حاسة السمع بل تنشط. ولكن هؤلاء القوم جاء عنهم مثلاً قوله تعالى: [1] ﴿ **وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون** ﴾ فهم يقولون صراحة بنص القرآن الكريم ﴿ **وفي آذاننا وقر** ﴾ وهنا تشير الآية الثانية التي نحن بصددها إلى حاسة السمع المعطلة، قال تعالى: ﴿ **وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾.

ونحن في حقيقة الأمر بصدد نوعين من الآذان، الأذن التي تسمع الأصوات، تقف عند ذلك ولا تتعداه، والأذن التي تسمع الأصوات وتعي وتنتفع مما تسمع من دعوة إلى الخير والفلاح. والآية التي نحن بصددها تعني مرحلة السماع هذه الثانية، التي لا تتم إلا بعد المرور بمرحلة السماع الأولى المجردة، التي يكتفي بها البعض، ككفار مكة، بل يحاولون جاهدين أن يدفعوا عنهم وعن سواهم مرحلة السماع الأولى خوفاً من أن يسحبوا إلى المرحلة الثانية، مرحلة السماع النافع التي هم لها مبغضون [2].

وبما أن المصطفى ﷺ كان لقومه الناصح الأمين، وأن هؤلاء المكذبين حريصون على ألا يسمعوا منه شيئاً، لذلك فلا فائدة ترجى مطلقاً منهم عن طريق إنذار الرسول ﷺ لهم. وهذا ما نصت عليه الآية التي تشير إلى تعطيل هؤلاء عمل حاسة السمع عندهم، قال تعالى: ﴿ **وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾.

---

(١) سورة فصلت، ٥.

(٢) انظر على سبيل المثال سيرة ابن هشام ١/٣١٣، وما بعدها. الطبعة الأولى، حلبي.

تلك هي حقيقة كفار مكة. فينبغي على المصطفى ﷺ أن ييأس من رجوعهم إلى الصراط السوي. وما العمل إذن ما دامت الفائدة لا ترجى مطلقاً من إنذاره ﷺ لكفار مكة؟ العمل يكون في صورة إنذار من اتَّبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب، بإنذار الفئة المؤمنة التي يبشرها الله عز وجل في كتابه العزيز بالمغفرة والأجر الكريم. قال تعالى خطاباً للمصطفى ﷺ وتسلية له وتسرية عنه ﴿ **إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم** ﴾.

الذين اتبعوا الذكر:

نستطيع أن نفهم من السياق أن نسبة هؤلاء أول الأمر قليلة بالقياس إلى الذين حق عليهم القول بدخول جهنم، فقد جاء من قبل قوله تعالى: ﴿ **لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون** ﴾ وهذه هي الآية الخاصة بالفئة المؤمنة، قال تعالى: ﴿ **إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم** ﴾ ونستطيع أن نقول بشأن هذه الآية إنها مكملة لظاهرة التدرج الخارجية بالقياس إلى الآيات الثلاث السابقة، وكذلك الداخلية على غرار الآيات السابقة.

أما أن الآية مكملة لظاهرة التدرج من الخارج فلأنها تعتبر فاتحة لباب الأمل العريض بعد اليأس وقد تمكن من عودة المكذبين إلى طريق الهدى والحق وبما أنها تهدف إلى تسلية المصطفى ﷺ، فهذا يعني أنها تسير مع الجو العام للآيات التي صدرت بها هذه السورة المباركة.

وأما أن الآية مكملة لظاهرة التدرج من الداخل، فلأنها تسير على غرار الآيات السابقة، إذ تتبين فيها ظاهرة التدرج المنطقي والبناء الهرمي للمعاني. فخشية الرحمن بالغيب مرتبطة باتباع الذكر أي القرآن ومبنية عليه. والأجر

الكريم مرتبط بغفران الله تعالى لذنوب الفئة المؤمنة بالله عز وجل رباً وبمحمد ﷺ نبياً ومبنى عليه.

وبهذه المناسبة نحب أن نقرر أن ظاهرة التدرج المنطقي في عرض المعاني أو البناء الهرمي للأفكار، فطن لها عظماء الكتاب في اللغة العربية على مر العصور وفتنوا بها فتنة بعيدة المدى وقد حرص على محاكاتها ووفق البعض ضمن حدود الطاقة البشرية في هذه المحاكاة. بل إنَّ ظاهرة التدرج المنطقي وبناء الأفكار الهرمي تعتبر بالنسبة لبعض هؤلاء الفحول من الكتاب من أهم ما يميز أسلوبهم ومن أجلِّ الأسباب التي جعلتهم يشار إليهم بالبنان في مجال التعبير النثري [1].

قضية البعث:

الحقيقة أن قضية البعث بعد الموت هي المحور الذي تدور حوله هذه السورة المباركة، وكان للقسم الأول في السورة نصيب منها حيث جاءت الإشارة إلى هذه القضية في هذه الآية الأخيرة، قال تعالى: ﴿ **إنَّا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾.

ومعروف موقف المؤمنين المصدق لكل المعاني التي تتضمنها الآية، وموقف المكذبين غير المصدق لكل ذلك وهذه السورة المباركة تهدف في مجموعها إلى حمل هؤلاء المكذبين على التصديق بالبعث بعد الموت فالحساب. وقد نصت هذه الآية على ذلك، وعلى تسجيل الملكين عن يمين المرء وشماله لأعماله كما جاء في سورة ق [2] ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما**

(١) أريد في القديم أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وفي هذا العصر الدكتور طه حسين. ففي أسلوب الثاني تأثر صارخ بالأول. والأول أخذ الظاهرة التي نحن بصددها من القرآن الحكيم.

(٢) آيات، ١٦ ـ ١٨.

يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ كما نصت الآية على تدوين كل الآثار التي يكون ذلك الإنسان سببا فيها بعد موته. سواء كانت آثاراً حسنة أو سيئة. ويوم القيامة يثاب الإنسان أو يعاقب على كل عمل صالح أو غير صالح قام به في حياته أو كان سبباً فيه بعد مماته.

«والإمام المبين، واللوح المحفوظ وأمثالها، أقرب تفسير لها هو علم الله الأزلي القديم وهو بكل شيء محيط»[1].

(1) في ظلال القرآن ٢٣/١٣.

القِسمُ الثَّاني

عذاب الكافرين فى الأولى والآخرة
أليم وثواب المؤمنين عظيم
الآيات (١٣ ـ ٣٠)

لم تشأ إرادة الله عز وجل معاجلة المكيين المكذبين للرسول ﷺ بالعقوبة إنما فتنتهم في كل عام مرة أو مرتين علهم يرعوون إلى طريق الهدى والفلاح وفي الوقت ذاته شاءت إرادته عز وجل رحمةً منه بعباده أن يقيم عليهم الحجة البالغة، ومن مظاهر ذلك في هذه السورة ضرب المثل بالقرية الظالمة التي أهلكها الله تعالى. وهذا القسم يمتد إلى نهاية الآية الثلاثين، قال تعالى: ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون. إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون. قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون. قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون. وما علينا إلا البلاغ المبين. قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم. قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون. وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون. وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون.. أأتخذ من دونه آلهة أن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون. إني إذن لفي ضلال مبين. إني آمنت بربكم فاسمعون. قيل ادخل الجنة، قال يا ليت قومي يعلمون. بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين. وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون، يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾.

ونستطيع أن نقول عن هذا القسم من السورة إنه تحذير لهؤلاء المكيين الكافرين، وفي الوقت ذاته هو تسلية غير مباشرة للرسول ﷺ وللفئة المؤمنة من أتباعه عليه الصلاة والسلام. وقد لاحظنا أن في القسم الأول من السورة تسلية خفيفة وغير مباشرة للرسول ﷺ. وسنلاحظ في المستقبل أن هذه التسلية ستكون صريحة، وذلك في الآية السادسة والسبعين من السورة، ﴿ **فلا يحزنك قولهم، إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾.

وبعد هذا الإجمال نتحول إلى شيء من التفصيل. فمع هذه الآية أولاً، قال تعالى: ﴿ **واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون** ﴾ والخطاب كما هو معروف للمصطفى ﷺ الذي كان آنذاك بمكة يلاقي هو والفئة المؤمنة من المكذبين كل عنت واضطهاد. أما الضمير من القول ﴿ **لهم** ﴾ فيعود إلى كفار مكة وقد أشبه موقفهم موقف كفار القرية الظالمة.

وبهذه المناسبة نحب أن نقول: إن لفظ القرية الذي جاء في الآية يراد به المدينة، بدليل قوله تعالى عن هذه القرية ذاتها في هذا القسم ﴿ **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى** ﴾ وقد كان يطلق على مكة آنذاك لفظ القرية بمعنى المدينة أو البلدة، وليس بالمعنى الذي نقصده في عصرنا من إطلاق لفظ القرية، التي تعني في عرفنا الرقعة من الأرض الصغيرة النائية والتي يقل أخذ أصحابها بنصيب من وسائل الحضارة. فكأن في استعمال الآية الكريمة لفظ القرية، بالمعنى الذي ينطبق على مكة آنذاك مظهراً من مظاهر التشابه المختلفة بين سكان القرية الظالمة التي أهلكها الله تعالى وسكان مكة، فعلى المكيين أن يأخذوا حذرهم.

والآية تستعمل صيغة الجمع في القول ﴿ **إذ جاءها المرسلون** ﴾ وقد نصت الآيات بعد ذلك على أن عدد هؤلاء الرسل ثلاثة، جمعت بينهم صفة المجيء بأمر الله تعالى إلى أهل هذه القرية وإن لم يرسلوا في وقت واحد ولكن

موقف أصحاب القرية منهم واحد، هو التكذيب. قال تعالى: ﴿ **إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون** ﴾.

ونستطيع أن نفهم من موقف هؤلاء المكذبين من رسل الله تعالى الثلاثة، أنّ هذا الموقف منهم لن يتغير مطلقاً لو ارتفع عدد هؤلاء الرسل لأنهم ينطبق عليهم تماماً ما جاء في تقرير موقف كفار مكة من الرسول ﷺ في القسم الأول من السورة، قال تعالى: ﴿ **إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون. وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون. وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾.

ويلاحظ أنه يجيء على لسان هؤلاء الرسل أول الأمر القول ﴿ **إنا إليكم مرسلون** ﴾ دون إدخال لام التوكيد التي جاءت بعد ذلك على لسانهم والسبب هو أنهم ابتداء يقررون حقيقتهم ويبينون صفتهم. لذلك كان كلامهم عادياً وطبيعياً.

والآية التالية تبين موقف أصحاب القرية من الرسل، القريب من موقف كفار مكة. قال تعالى: ﴿ **قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلاّ تكذبون** ﴾.

فهذه الجزئية ﴿ **ما أنتم إلا بشر مثلنا** ﴾ ينزل فيها المكذبون رسل الله تعالى إليهم المنزلة التي لا ينبغي لهم أن يتجاوزوها في نظرهم. وكأنهم فهموا من دعوة الرسل لهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له أنهم ينزلون أنفسهم منزلة عالية، مع أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. إنها هبة من الله تعالى خص بها هؤلاء الرسل دون أن يكون من ناحيتهم أدنى سعي أو أقل تفكير في أن هذا الفضل يمكن أن يكون من نصيبهم يوماً من الأيام. وإن الطريقة التي يعبر بها هؤلاء المكذبون ليست عادية، فهي تبدأ بالنفي، نفي أي فضل لهؤلاء الرسل، وإثبات أنهم بشر مثلهم تماماً. وهذا ما يسمى بأسلوب القصر.

أما هذه الجزئية ﴿ **وما أنزل الرحمن من شيء** ﴾ ففيها تعرض من المكذبين للوسيلة التي توسل بها هؤلاء الرسل وإن كنا لا نعرف على وجه التحديد طبيعة تلك الوسيلة . ولكنا نعرف أن هذا الموقف منهم هو موقف كفار مكة من الرسول ﷺ ومن وسيلته . وهي القرآن الحكيم المعجزة الخالدة . وان حرف الجر من يفيد التبعيض . ومعروف أن نفي الجزء أبلغ من نفي الكل. وأخيراً هي تدل على أن أهل القرية يقرون بوجود الله تعالى ولكنهم يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق أو يشركون مع الله آلهة أخرى. وهذه حقيقة موقف كفار مكة، قال تعالى: ﴿ **وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين** ﴾.

أما هذه الجزئية الثالثة والأخيرة في الآية ﴿ **إن أنتم إلا تكذبون** ﴾ فإنها على غرار السابقتين لأنها في أسلوب القصر كذلك. وفيها من ناحية تكذيب لهؤلاء الرسل الذين أثبت لهم المكذبون صفة البشرية من قبل، وكأنهم ينزلون بهم الآن عن ذلك المستوى إذ ينفون عنهم صفة الصدق ويثبتون لهم الكذب. وفيها من ناحية أخرى رفض شديد للوسائل التي يتوسل بها هؤلاء الرسل فهذه الجزئية مبنية على السابقتين، وهذا يعني أننا نعود سريعاً إلى البناء الهرمي للمعاني الذي تبيناه من قبل في القسم الأول من السورة.

وهذا هو رد الرسل على قومهم المكذبين، قال تعالى: ﴿ **قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون، وما علينا إلا البلاغ المبين** ﴾. ونستطيع أن نفهم أن هذا هو رد كل رسول من الرسل الثلاثة على أقوامهم، وحيث إنَّ كلاًّ منهم في موقف المؤكد أنه رسول من رب العالمين، لذا جاء على لسانهم ﴿ **إنا إليكم لمرسلون** ﴾ وهو رد فعل لإنكار الأقوام أنهم رسل ربهم، ويلاحظ أن كلاًّ من هؤلاء الرسل يفر إلى أحكم الحاكمين ويلجأ بكل مشاعره ويقينه إلى السماء،

إلى الله تعالى الذي يعلم حقيقتهم وأنهم رسل من عنده عز وجل. كما يقرر كل منهم الدور الذي عليه أن يؤديه خير أداء وهو تبليغ الرسالة ونصح الأمة، وليس من حقه أن يتجاوز ذلك.

ونستطيع أن نقول عن هاتين الآيتين على لسان الرسل إنَّ فيهما تسلية للمصطفى ﷺ. فهذا الموقف من المكذبين بالنسبة لرسلهم هو موقف قومه ﷺ منه. وكأن الآية الثانية تقول له عليه الصلاة والسلام لا ينبغي أن تذهب نفسك حسرات عليهم، ولا ينبغي أن تهلك نفسك حزناً منك لعدم إسلامهم ﴿ **فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب** ﴾ (١).

وموقف المكذبين بعد ذلك من هؤلاء الرسل، كما أوضحته هذه الآية على لسانهم ﴿ **قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم** ﴾ شبيه تماماً بموقف كفار مكة منه ﷺ وقولهم له حينما ينزل بهم أي سوء. هؤلاء المكذبون يتجاوزون ذلك في تعبيرهم. تماماً كما تجاوز كفار مكة إلى القول على لسانهم ﴿ **لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم** ﴾.

والحقيقة أن هذا هو موقف كل كافر جاحد، فهذا آزر، والد إبراهيم عليه السلام، على سبيل المثال، يقف منه هذا الموقف. قال تعالى على لسانه (٢): ﴿ **قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم، لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً** ﴾.

وليس هناك ما يمنعنا من الذهاب إلى أن الرجم في كل من المناسبتين هو القذف بالحجارة حتى الموت. ألم يحرص قوم إبراهيم عليه السلام على تحريقه بالنار؟ ويرتبط بالقذف بالحجارة أن يمس هؤلاء المرسلين، على حد تعبير المجرمين، عذاب أليم، ويلاحظ أن التعبير ليس عادياً خاصة وقد تضمن لام التوكيد أكثر من مرة.

---

(١) سورة الرعد، ٤٠

(٢) سورة مريم، ٤٦.

وإنما جاءت الإشارة على لسان كفار القرية إلى تشاؤمهم من الرسل، بعد أن حبس عنهم المطر فيما يقال [1] وقد كره هؤلاء الكفار دين الرسل «ونفرت منهم نفوسهم، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم. ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه. فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا. كما حكى الله عن القبط: وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه. وعن مشركي مكة: وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك» [2].

وما كان باستطاعة واحد من الرسل إلا أن يبلغ رسالة ربه، ويؤدي الأمانة التي اؤتمن عليها وكان على لسان كل منهم ـ رداً على المتشائمين الطغاة من كفار القرية ـ قوله تعالى: ﴿ **قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم، بل أنتم قوم مسرفون** ﴾.

ومعنى القول طائركم معكم: أي سبب شؤمكم معكم، وهو كفركم ومعاصيكم، ومعنى القول أئن ذكرتم: أي تطيرتم لأن ذكرتم [3].

ويلاحظ أن قول الرسل في هذه الآية ينقسم إلى قسمين، على غرار القسمين اللذين يتكون منهما في الآية السابقة كلام كفار القرية، فهذا القسم: ﴿ **طائركم معكم أئن ذكرتم** ﴾ رد على قول الكفار: ﴿**إنا تطيرنا بكم** ﴾ وهذا القسم: ﴿ **بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ رد على قولهم ﴿ **لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم** ﴾.

وفي هذا القول على لسان الرسل: ﴿ **طائركم معكم أئن ذكرتم** ﴾ تسفيه لآراء كفار القرية، لأنهم ربطوا بين ما حل بهم من قحط ودعوة رسل الله تعالى لهم إلى الخير، بينما كان الأولى بهم أن يربطوا بين ما حل بهم وبين موقفهم

(١) الكشاف، ٢/٥٨٤.
(٢) الكشاف، ٢/٥٨٤.
(٣) الكشاف ٢/٥٨٤.

المعادي دائماً لتلك الدعوة الخيرة، وفي هذا القول على لسان الرسل: ﴿ **بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ تقرير لحقيقة الطغيان والبغي التي انتهى إليها كفار القرية، فبدلاً من أن يبادلوا الإحسان بالإحسان، إذا هم يبادلونه بالإساءة والإسراف ومجاوزة المعقول وهذا هو موقف كل كفار مكة من رسول الله ﷺ.

رجل ناصح أمين:

شاءت إرادة الله تعالى العلي القدير ألا تذهب دعوة هؤلاء الرسل أدراج الرياح وأن يستجيب لها رجل واحد. وربما كان هو الشخص الوحيد الذي آمن. ومن الجائز أن يكون رمزاً لسواه. والمؤكد أن لهذا الرجل دوراً إيجابياً في مساعدة الرسل ويقال إن اسمه حبيب، ويظن أنه كان نجاراً[1] والآيات التاليات تبين موقفه من قومه ومن الرسل، وموقف قومه منه. والثواب الذي أعده الله تعالى لعباده المجاهدين، قال تعالى: ﴿ **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى، قال يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون. وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون. أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون. إنّي إذن لفي ضلال مبين. إني آمنت بربكم فاسمعون. قيل ادخل الجنة. قال يا ليت قومي يعلمون. بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين. وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون. يا حسرة على العباد، ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون** ﴾.

فمع صدر الآية الأولى ﴿ **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى** ﴾ يفهم من هذا القول أن هناك مسافة تفصل بين الرجل وبين المكان الذي فيه الرسل وقومهم، وأن قصة الجدل بين الرسل ومكذبيهم انتشرت في المدينة بسرعة

---

(١) الكشاف، ٢/٥٨٤.

البرق حتى وصلت حبيباً هذا، وقد هداه الله تعالى عن طريق هؤلاء الرسل وعلم يقيناً أن عليه واجباً يحتم عليه أن ينصح قومه. ونستطيع أن نفهم من القول ﴿ **يسعى** ﴾ مدى إخلاص هذا الرجل ورغبته الصادقة في النصح لقومه. فهو لا يقتنع إلا بطاقته القصوى في السرعة. ونفهم من القول ﴿ **من أقصى المدينة** ﴾ ما يعمق إخلاص هذا الرجل إذ يلجأ إلى قدميه حالاً ولا يضيع شيئاً من وقته في البحث مثلاً عن ركوب يحمله على الرغم من بعد الشقة.

وماذا كان من هذا الرجل المؤمن الذي كلف نفسه كل تلك المشاق؟ كان منه النصح المبين لقومه، قال تعالى: ﴿ **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون، ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون. أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون. إنّي إذن لفي ضلال مبين. إنّي آمنت بربكم فاسمعون** ﴾.

إنَّه ليتكرر على لسان حبيب القول ﴿ **اتبعوا** ﴾ فليس لهؤلاء القوم فيما يتصل بالعقيدة إلا القيام بعملية الاتباع المجرد للرسل، فليس من حقهم مطلقاً، كما أنه ليس من حق أتباع أي رسول أن يغيروا أو يبدلوا. أن يضيفوا أو يحذفوا. وكثير هي المناسبات في القرآن الكريم التي جاء فيها النص على عملية الاتباع هذه [1].

وقد جرت العادة بأن من يقوم بأي عمل للآخرين أن يأخذ ما يقابل أتعابه. ومع أن هؤلاء الرسل يقومون بأهم الأعمال وأجلها، إذ يسعون إلى إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، فإنهم لا يسألون لقاء أعمالهم الجليلة هذه من أجر. فلا أقل من أن ينصف هؤلاء الرسل بالإصغاء النزيه إليهم وأن يتبع هؤلاء المهتدون. وهذا ما نص عليه القول على

(١) انظر على سبيل المثال آية ٣٨ من سورة يوسف وآية ٤٣ من سورة مريم.

لسانه: ﴿ **يا قوم اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون** ﴾.

ونضيف بأنا نفهم من النداء اللطيف على لسان حبيب ﴿ **يا قوم** ﴾ حرصه البعيد المدى على استمالة قومه تأييداً منه لرسل رب العالمين.

وهذا الحرص على استمالة قومه إلى قبول الدعوة التي جاء بها الرسل، نتبينها في الآيات التاليات. ففي سبيل تبيين عدم موافقته قومه على عبادتهم للأصنام من دون الله تعالى لا يجعل هؤلاء الأقوام هدفاً مباشراً له، خوفاً من أن ينفروا منه، إنما يجعل نفسه هو محور الحديث فينفي عن نفسه ما لا يليق به من صفات هي بعيدة عنه في الواقع كل البعد، لاصقة بقومه كل اللصوق، كل ذلك بقصد حمل القوم على التفكير بروية، وتدبر الأمر بتؤدة، قال تعالى على لسانه: ﴿ **وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون. أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون. إني إذن لفي ضلال مبين، إني آمنت بربكم فاسمعون** ﴾.

لقد منَّ الله على هذا الرجل باللسان الرطب والقلب الطيب والفكر الراجح. كان قريباً كل القرب من الله تعالى بعيداً كل البعد عن اتباع الهوى، ومع كل ذلك فهو في جعله نفسه محور حديثه لا ينسب إلى نفسه أي فضل، إنما يطرد عن نفسه كل صفة سيئة، بعيدة في حقيقتها عنه، لاصقة بقومه تماماً. فبين بوضوح تام حقيقة تلك الأخطاء. وزيف تلك المعتقدات. ويفهم قوم حبيب كل ذلك ويعرفون أن ذلك هو واقعهم دون أن يكون منه أدنى إشارة مباشرة إليهم. وهذه الطريقة التي سار فيها هذا الرجل الملهم تذكرنا بقوله تعالى خطاباً لموسى وهارون عليهما السلام [1]: ﴿ **اذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى** ﴾.

---

(١) سورة طه، ٤٣، ٤٤.

وبتأملنا للآية الأولى: ﴿ **وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون** ﴾ يتضح أن حبيباً يستفهم في إنكار ألا يعبد الله عز وجل الذي خلقه ولم يك شيئاً، وقد عرفنا أنه عابد لله تعالى وحده لا شريك له حق العبادة، وأن قومه هم الذين لا يعبدونه عز وجل إنما يدعون آلهة من دونه. فكأنه في هذا الاستفهام يستنكر في حقيقة الأمر على قومه أن يعبدوا غير الله. وكما تعرض الآية لإيجاد الإنسان من العدم هي تعرض لبعثه بعد الموت. وكأنَّ لسان حاله يقول: ما لكم أيها القوم تعبدون غير الله تعالى الذي خلقني وإيَّاكم من العدم والذي نرجع إليه جميعاً يوم القيامة ؟ ماذا دهاكم أيها القوم حتى تعبدوا هذه الآلهة العاجزة عن كل شيء؟

وكلام حبيب اللطيف بأن الله عز وجل خالقهم وأن هناك بعثاً فحساباً مستمد مما جاء به رسل الله تعالى إلى قومه، فنحن بصدد تنبيه من حبيب وتذكير.

ولعلنا لاحظنا أن الجزء الأول الأكبر من الآية يستعمل فيه ضمير المتكلم، وأن الجزء الثاني الأصغر يستعمل فيه ضمير المخاطبين، وأن الجزء الأول يتضمن إنكاره ألا يعبد الذي فطره وأن الجزء الثاني يضيف جديداً إلى معلومات القوم، أو بعبارة أدق يعمق المعلومات السابقة التي جاءهم بها الرسل. ففي هذا الجزء الثاني تقرير لمعلومات سابقة وليس فيه أي لوم أو إنكار بعكس الجزء الأول الذي يستخدم فيه ضمير المتكلم. والتحول من الحديث عن الذات إلى الحديث عن المخاطبين، يتمشى مع الانتقال من الإنكار إلى التقرير. وكل ذلك يؤكد حنكة هذا الرجل وحرصه على الخير لقومه إذ يتمنى لهم ما يتمنى لنفسه.

وفي إمكاننا أن نضيف سبباً آخر له دوره في جعل كلام هذا الرجل يميل إلى اللين الشديد، وهو أنه لم يكن يخفى عليه حب قومه للآلهة التي يعبدون من

دون الله تعالى وشدة بطشهم، فقد كان يخاف أن يفرطوا عليه أو أن يطغوا. وينبغي أن يكون كل ذلك راسخاً في أعماقه خاصة وأنهم سبق أن جاء على ألسنتهم خطاباً للرسل صراحة قوله تعالى: ﴿**لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم**﴾.

وهذه الآية على لسان حبيب ﴿ **أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضرٍّ لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون** ﴾. تنقسم كما هو واضح إلى قسمين. يعتبر القسم الأول ﴿ **أأتخذ من دونه آلهة** ﴾ امتداداً لتعبيره اللطيف الحريص فيه على إسلامهم واكتفاء شرهم في الوقت ذاته. وهو يجعل نفسه محور الحديث إذ يستفهم في إنكار شديد أن يتخذ هو من دون الله تعالى آلهة. وبما أن هذه الصفة بعيدة عنه كل البعد، وبما أنها لاصقة بقومه، فكأن لسان حاله يقول خطاباً لقومه مستفهماً في إنكار شديد: أتتخذون من دون الله تعالى آلهة؟

وإنَّ شيئاً ليس بعيداً من هذا يقال عن القسم الثاني من الآية ﴿ **إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون** ﴾ ففيه تقرير لحقيقة هذه الآلهة التي يعبدها قومه من دون الله تعالى، وينطلق حبيب هذه المرة كذلك من ذات نفسه للأسباب التي ذكرنا فيصف هذه الآلهة بالعجز التام، فهي أضعف من أن تدفع عن الإنسان ضراً فضلاً عن أن تجلب إليه نفعاً. ولو فرض أن شخصاً استمر في ضلاله المبين عابداً لهذه الآلهة فإنها أعجز من أن تنقذه من عذاب الله تعالى البر الرحيم. وقد عبر عن هذا في القول على لسانه ﴿ **ولا ينقذون** ﴾ وكأن حبيباً ينص بوضوح تام على البديل الصحيح والقدرة المطلقة للقادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وهذه هي النتيجة السيئة والعاقبة الوخيمة لمن استمر في ضلاله المبين ﴿ **إنّي إذن لفي ضلال مبين** ﴾ ولا زلنا نتعامل مع ضمير المتكلم للأسباب التي ذكرنا. وتأمل الدور العظيم الذي يقوم به اللفظ ﴿**إذن**﴾ الذي يربط هذه

النتيجة الوخيمة باستمرار هؤلاء القوم على عبادتهم للآلهة وقد قال تعالى [1]: **﴿ لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾**.

وبعد كل هذه التوطئة الطويلة اللطيفة الحذرة، يتم الإعلان الصريح بإيمان حبيب بالله تعالى ربًّا وعبادته عز وجل وحده لا شريك له **﴿ إنّي آمنت بربكم فاسمعون ﴾**. وفي هذه الآية الحديث عن النفس والموجه للمخاطبين، وحيث إنّه هو الذي يؤمن بالله تعالى رباً، لذا جعل نفسه محور الحديث في هذه المسألة **﴿ إني آمنت بربكم ﴾** وحيث إنه يريد منهم أن يؤمنوا بمثل ما آمن بأن الله عز وجل هو ربهم خالقهم ومربيهم بنعمه وفضله، لذلك استعمل ضمير المخاطبين وليس المتكلم **﴿ بربكم ﴾** لأن هذا التعبير قادر على حمل القوم على التفكير الجاد في هذه المسألة لأنه عدل أو التفت عن ضمير المتكلم إلى ضمير المخاطبين، فينبغي أن يعلموا أنه يريد من هذا التحول شيئاً مهمًّا. وهذا الشيء المهمّ هو التنبيه إلى أن الله عز وجل هو مربيهم بنعمه بعد أن خلقهم. فالأولى بهم أن يؤمنوا به رباً وأنْ يعبدوه وحده لا شريك له وأن يتخلصوا تماماً من عبادة الآلهة العاجزة عن كل شيء وفي مقدمتها دفع الضر فضلاً عن جلب النفع.

وختم حبيب حديثه بالقول على لسانه خطاباً لقومه **﴿ فاسمعون ﴾** إنه يأمرهم هذه المرة بأن يسمعوا سماع تدبر ويعوا كل صغيرة وكبيرة قالها، وبعد ذلك هم أحرار يفعلون ما شاءوا، أما هو فقد قال كل الذي اعتقد بأنَّ عليه أن يقول، واقفاً في صف رسل الله الثلاثة، والأمر كله، أولاً وأخيراً، بيد الله.

وإنا لنتذكر بشأن حبيب قوله تعالى [2] **﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾**.

---

(١) سورة الفرقان، ٣.

(٢) سورة النّحل، ١٣٥.

وإذا كان كفار القرية قد جاء على لسانهم خطاباً لرسل الله تعالى إليهم قوله عز وجل ﴿ **لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم** ﴾ فإنا نعتقد أنهم أكثر جراءة على هذا الرجل المؤمن الحريص على إيمانهم والذي جاء من أقصى المدينة يسعى. ونعتقد أن جراءتهم على هذا الرجل كما تقول كتب التفسير، انتهت بهم إلى قتله فعلاً. وهكذا شاءت إرادة الحكيم الخبير أن يكون لدعوة الخير هذه، ولكل دعوة إلى الخير دائماً، من يبذل روحه رخيصة في سبيل مرضاة ربه عز وجل ودينه الذي ارتضى لعباده. كما شاءت إرادة العلي القدير، لحكمة أرادها أن يكون طريق كل دعوة مليئاً بالتعب والنصب والجهاد والفداء. فليس الطريق مليئاً بالورود ولكن بالأشواك. قال تعالى [1] ﴿ **حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين** ﴾ وقال تعالى [2] ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم، سيهديهم ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنة عرَّفها لهم** ﴾ وقال تعالى [3]: ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم** ﴾.

والثواب الذي أعده الله تعالى لهؤلاء العباد المجاهدين لا يستطيع أن يتصوره عقل بشر. فبشأن هذا الرجل الساعي إلى إنقاذ قومه الذين فتكوا به جزاء دعوته لهم إلى الخير والفلاح، جاء قوله تعالى: ﴿ **قيل ادخل الجنة، قال يا ليت قومي يعلمون، بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين** ﴾ فثواب هذا الرجل من الله عز وجل أن يطلب إليه أن يدخل الجنة وقد فتحت له أبوابها، وليس

---

(١) سورة يوسف، ١١٠.

(٢) سورة محمد، ٤ ـ ٦.

(٣) سورة محمد، ٣١.

وراء هذا الثواب وراء. ففي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقد جاء على لسان هذا الرجل بعد أن نال غاية المنى ما يذكرنا بقوله تعالى في صفات المؤمنين[1]: ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون** ﴾. فهذا الرجل الذي بذل حياته رخيصة في سبيل ربه عز وجل. يجيء على لسانه ما يفهم أنه موقن بأنه إنما بلغ هذه الدرجة الرفيعة بفضل الله تعالى عليه وعفوه عنه وليس بعمله واجتهاده. وإن لسان حاله ليحمد الله عز وجل الذي غفر ذنوبه وستر عيوبه ومنَّ عليه بعد ذلك فجعله من المكرمين المنعم عليهم في الآخرة. وما أبعد تمنيه وقد فتحت له أبواب الجنات وطلب إليه أن يدخلها لو أن قومه علموا بالفضل الكبير من الله تعالى عليه. ولعله كان يتمنى في أعماقه، إضافة إلى ما سبق، لو أن قومه عادوا سريعاً إلى طريق الهدى والفلاح، فعسى أن يكون لهم بعد مغادرة هذه الحياة الدنيا نصيب حسن، ولكن الله تعالى، العزيز المنتقم الجبار المتكبر قد بطش بهؤلاء الكفار البطشة الكبرى، وذلك ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ **وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين، إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون** ﴾

القدر يتدخل:

بشأن هذه الآية الكريمة: ﴿ **وما أنزلنا على قومه من بعده من جندٍ من السماء وما كنَّا منزلين** ﴾ يقول الطّبريّ[2]: «يقول: ما كاثرناهم بالجموع، أي الأمر أيسر علينا من ذلك، إن كانت إلاَّ صيحةٍ واحدة فإذا هم خامدون. فأهلك الله ذلك الملك وأهل إنطاكية فبادوا عن وجه الأرض فلم تبق منهم باقية».

(١) سورة المؤمنون، ٦٠.

(٢) تفسير الطبريّ ٢٣/٣.

وبتأملنا للقول: ﴿ **وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء** ﴾ يتضح أنه يتمشى مع سنته عز وجل قبل البعثة المحمدية بشأن المكذبين لرسل الله تعالى. لقد كان القدر يتدخل في العادة حالاً بعد أن تلزم الحجة المكذبين. قال تعالى عن كفار مكة [1] ﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون، ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون** ﴾ وقال تعالى [2] ﴿ **وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم، ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون. وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين، ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذن منظرين** ﴾. وقال تعالى [3]: ﴿ **إنَّ الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم. فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين** ﴾.

وبما أن قوم حبيب من الذين حقت عليهم كلمة ربك، بدخول جهنم، فهم ينطبق عليهم قوله تعالى في القسم الأول من السورة ﴿ **لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون** ﴾ لذلك حلت بهم نقمة المنتقم الجبار: ﴿ **وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء** ﴾؟ فهؤلاء الأقوام الذين كذبوا رسل الله تعالى الثلاثة، وبطشوا بعبد الله تعالى المنعم عليه حبيب النجار الذي أخلص لهم النصيحة كم من جند لله عز وجل يستحقون أن ينزل لتعذيبهم ويحتاجون من زاويتك أيها الإنسان وأنت المحدود القدرة المقهور الإرادة؟ ستقول إنهم بحاجة إلى الكثير من الجنود والكثير. ولكن هؤلاء الجبارين ما أهونهم على الله عز وجل وأقل حيلتهم وأشد عجزهم.

---

(١) سورة الأنبياء، ٥، ٦.

(٢) سورة الحجر، ٤ - ٨.

(٣) سورة يونس، ٩٦ - ٩٨.

وكان التبيين للعذاب متمثلاً في هذه الآية: ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون** ﴾. والمعنى ما كانت إلا صيحة واحدة بأمرنا من واحد من جندنا هو جبريل عليه السلام [1] فإذا هم ميتون، فكأنهم النار التي خمدت بعد توقدها.

فهذه الآية تبين حقيقة ضعف هؤلاء الأقوام الجبارين بالقياس إلى شيء هين من قدرة واحد من جند الله تعالى: ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾ [2].

فعلى كفار مكة أن يأخذوا العبرة مما حل بقوم حبيب. والسعيد من وعظ بغيره.

وكما انتهى القسم الأول من الآيات بآية يمكن أن يقال عنها إنها تعقيبية، كذلك انتهى هذا القسم بآية مماثلة، قال تعالى: ﴿ **يا حسرة على العباد، ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون** ﴾. يقول الطّبريّ[3]: «يقول تعالى ذكره: يا حسرةً من العباد على أنفسها وتندُّما وتلهفاً في استهزائهم برسل الله». وها نحن أولاء نتقلب دائماً مع مدلول لفظتي العزيز الرحيم اللتين جاءتا في القسم الأول، قال تعالى: ﴿ **تنزيل العزيز الرحيم** ﴾. يريد الله عز وجل لعباده الخير دائماً، ويصر أكثرهم على رفض الخير والسعي للشر بكل جد واجتهاد وهنا يكون الخطاب للحسرة في صيغة النداء، والمعنى: أيتها الحسرة هذا أوانك فاحضري. لقد أصرت النفس الإمارة بالسوء لأكثر عبادي على أن يستهزئوا بكل رسول أبعثه إليهم. ويلاحظ أننا في الآية مع أسلوب القصر، وهذه الطريقة في التعبير أدل على الإحاطة والشمول، وأن الاستهزاء بالرسل سجية المجموعة الكافرة في كل أمة يبعث فيها رسول، إذ المعروف أن ﴿ **أل** ﴾

---

(١) انظر البحر المحيط ٧/٣٣١.

(٢) سورة المدثر، ٣١.

(٣) تفسير الطبري ٢٣/٣.

في قوله تعالى ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ لتعريف جنس الكفار المكذبين [1].

وبشأن هذا القسم من السورة بالذات نود التنبيه إلى ملاحظتين أسلوبيتين الأولى هي أن في هذا القسم جنوحاً ملحوظاً إلى أسلوب القصر، وهذه الطريقة في التعبير أكثر دلالة على الإحاطة والشمول.

الثانية هي أن فيه جنوحاً ملحوظاً إلى أسلوب الاستفهام بقصد جعل الرابطة متينة مع المخاطبين عن طريق شد انتباههم الفينة بعد الفينة بطرح سؤال عليهم وحملهم على التفكر فالتدبر.

والملاحظتان مبثوثتان في السورة.

من دراستنا لقسم السورة الثاني تبين أنه يهدف بطريق غير مباشر إلى تسلية المصطفى ﷺ والفئة القليلة المؤمنة، كما يهدف إلى حمل كفار مكة على التفكر والتدبر، وذلك عن طريق ضرب المثل بالقرية التي بعث الله عز وجل إليها رسله، الواحد بعد الواحد. فكذبهم أصحابها وبلغ بهم الاستهزاء والاستهتار أن بطشوا بعبد الله تعالى المنعم عليه حبيب النجار الذي أخلص لهم النصيحة فانتقم الله عز وجل منهم ومزقهم كل ممزق.

وحيث إن موقف المكيين من النبي الأمي شبيه بموقف أهل القرية، فمن الطبيعي جداً أن يحملهم هذا المثل الذي ضرب على المقارنة بين الموقفين، وتدبر العاقبة الوخيمة التي كانت من نصيب المكذبين السابقين أمثالهم.

---

(١) البحر المحيط ٧/٣٣٣.

القسم الثالث

آيات المكان والزّمان والحمل
فوق الماء - الآيات (٣١ ـ ٤٤)

طريقة القسم الثالث من الآيات في سورة يس، مباشرة في حمل كفار مكة على التأمل والتدبر إذ جعلتهم هدفاً مباشراً لها، وينتهي هذا القسم بنهاية الآية الرابعة والأربعين، قال تعالى: ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون، وإن كل لما جميع لدينا محضرون. وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون، وجعلنا فيها جنات من نخيلٍ وأعناب وفجَّرنا فيها من العيون. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون. سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون. وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون. والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون. وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون،وخلقنا لهم من مثله ما يركبون. وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون. إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين** ﴾.

ويلاحظ بصفة عامة على هذه المجموعة من الآيات أنها في سبيل حمل الموجه إليهم الحديث على التأمل والتدبر تتحدث عن الموت والبعث، ثم عن آيات الله تعالى الثلاث الدالة على قدرته المطلقة جل وعلا. آية المكان، وآية الزمان، وآية حمل الإنسان فوق الماء.

حقيقتا الموت والبعث:

الآية الأولى في هذا القسم التي تتحدث عن الموت: ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون** ﴾ هي لا تتحدث عنه في طريقة تقريرية عادية، وإنما في طريقة استفهامية، وفي لهجة حادة يستحقها أولئك المكذبون لرسول الله تعالى المنكرون لحقيقة البعث. فبما أن كفار مكة يتفقون في موقفهم من الدعوة إلى الله تعالى مع المكذبين السابقين لرسل الله تعالى إليهم وقد أهلك الله عز وجل أولئك المكذبين، لذا حسن لفت انتباه كفار مكة إلى العاقبة الوخيمة التي كانت من نصيب السابقين، ومن الجائز تماماً أن تكون عاقبتهم مماثلة لتلك إن لم يغيروا من موقفهم المماثل.

ومع أنه من الجائز القول: إنَّ معنى ألم يروا في الآية، ألم يعلموا، لأن كم الخبرية تدل على الكثير والكثير من الجماعات والأمم التي أهلك الله عز وجل لكفرها، وهم قد علموا بذلك الإهلاك ولم يشهدوه. فإن هؤلاء المكيين رأوا بأعينهم شيئاً من آثار بعض الجماعات التي أهلكت، قال تعالى على سبيل المثال في سورة الصافات [1]: ﴿ **وإن لوطاً لمن المرسلين، إذ نجيناه وأهله أجمعين، إلا عجوزاً في الغابرين، ثم دمرنا الآخرين، وإنكم لتمرون عليهم مصبحين، وبالليل أفلا تعقلون** ﴾. وعلى كل فإن القول: «ألم يروا» له علاقة بحاسة البصر، وهي أقوى الحواس فعالية في مثل هذه المناسبة.

وواضح أن هذه الآية التي تتحدث في عنف عن حقيقة الموت، إذ يجيء فيها القول ﴿ **أهلكنا** ﴾ تبين العجز التام لكل المكذبين السابقين. وكثير منهم بنص القرآن الحكيم أشد من كفار مكة قوة وأكثر ثراء، كما تقرر الآية انقطاع كل ما بين هؤلاء المكذبين وبين هذه الحياة الدنيا: ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون** ﴾.

---

(١) سورة الصافات: ١٢٣ ـ ١٣٨.

وإن لسان الحال ليقول: يوشك أن يكون مصيركم أيها المكيون المكذبون شبيهاً بموقف المكذبين السابقين إذا لم تعودوا سريعاً إلى جادة الصواب.

وهذه هي الآية التي تتحدث عن البعث والنشور، قال تعالى: ﴿ **وإن كل لما جميع لدينا محضرون** ﴾. فكأن ﴿ **كل** ﴾ تفيد كل جماعة على حدة. وكأن ﴿ **جميع** ﴾ تفيد الإحاطة والشمول. فالإحضار بقصد الحساب بعد البعث والنشور سيكون من نصيب كل الجماعات والأمم بلا استثناء. وفي هذه الآية أسلوب القصر الذي لاحظناه بوضوح تام في القسم الثاني من السورة.

الواو عاطفة . إن : حرف نفي . كلّ : مبتدأ مرفوع . لـمّا للحصر بمعنى إلاّ . جميع : خبر المبتدأ مرفوع بمعنى مجموعون . لدينا : ظرف مبنى على السّكون فى محلّ نصب متعلّق بجميع أو بمحضرون وهو خبر ثان أو هو نعت لجميع[1]

آية المكان

حيث إنّ الآيتين السابقتين تتحدثان عن الموت والبعث، وحيث إن كفار مكة منكرون للبعث والحساب، وحيث إنّ السياق سيتحدث بعد ذلك عن ثلاث من آيات الله الدالة على قدرته عز وجل، المكان والزمان وحمل الإنسان فوق الماء وحيث إنّ إحساس الإنسان بقيمة المكان وحاجته إليه يسبق إحساسه بقيمة الزمان وحاجته إليه، لذا كان من الطبيعي جداً أن يتحدث السياق أوّلاً عن آية المكان. لا ليس ذلك فحسب بل إنّ الحديث عن آية المكان يتمشى مع القضية المهمّة في هذه السورة والمحور الذي تدور حوله، إذ ينظر إلى المكان أو الأرض من الزاوية التي تخدم قضية البعث بعد الموت التي ينكرها المكيون، ألا وهي زاوية إحياء الله تعالى للأرض الميتة التي كانت رتقاء لا تنبت فأصبحت تنبت من كل زوج بهيج. قال تعالى: ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها**

---

(١) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه محمود صافى . دار الرّشيد دمشق بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون. وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون. سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾.

وبتأملنا للآية الأولى يتضح أنها تعرض لحقائق ثلاث مركبة ومرتبة ترتيباً منطقياً. الحقيقة الأولى هي إحياء الله تعالى للأرض الميتة، ويكون ذلك بجعلها صالحة لإنبات النبت بعد تقبلها للماء الذي أنزله الله تعالى من المزن، والحقيقة الثانية هي أن الأرض التي أحياها القادر على كل شيء لم تقف عند إنبات النبت، بل تخطت ذلك إلى إخراج الأنواع المختلفة من الثمر التي ترتاح لها العين وتبتهج بها النفس. والحقيقة الثالثة هي أن من هذه الأنواع من الثمار ما هو غذاء صالح ونافع للإنسان.

ويرتبط بهذه الحقائق الثلاث الكثير من الحقائق والكثير. منها أن الله تعالى هو الذي دحا الأرض وجعل فيها الجبال والأودية والأماكن الصالحة للحرث والأماكن غير الصالحة، ويقف الإنسان خائفاً أمام سؤال كهذا: ماذا كان سيعمل لو أن إرادة الله تعالى شاءت بأن تتكون الأرض من أماكن غير صالحة للحرث مطلقاً؟ سيلتفت للبحار والأنهار مثلاً لاستخراج طعامه منها! وما العمل لو لم تشأ إرادة الله عز وجل أن توجد البحار والأنهار؟ ويظل الإنسان ينتقل من سؤال إلى آخر، ولا يجد شفاء لغليله إلا في مثل قوله تعالى [1]: **﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً، ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها. وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾.**

---

(١) سورة فصلت، ٩ - ١٢.

وإذا كانت الآية الأولى: ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون** ﴾ تتحدث عما هو أقرب لأن يكون ضرورياً. فإن الآيتين التاليتين تتسعان فتشملان ما هو أقرب لأن يكون تفكهاً للنفس وبهجة للعين. قال تعالى: ﴿ **وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون** ﴾.

في إمكاننا القول إنَّ طريقة إحياء الأرض التي أشارت إليها أولى آيات هذه المجموعة إنما تتم عن طريق ماء السماء مباشرة. فليس هناك نوع من معالجة من جانب الإنسان. ويتمشى مع ذلك جو الآية العام الذي يتحدث ـ كما قلنا ـ عما هو أقرب لأن يكون ضرورياً وفطرياً. أما الآيتان التاليتان فإنا نفهم منهما بصفة عامة، أن للعنصر البشري أدواراً من نوع ما في هذه العمليات وقد نصت الآية التالية على ذلك صراحة في قوله تعالى: ﴿ **وما عملته أيديهم** ﴾.

ومما يدل على ما قلنا من أن الآيتين تتحدثان عما هو أقرب لأن يكون تفكهاً للنفس هو أنه إذا كانت الآية السابقة تتحدث عن الحب الذي يأكل منه الناس. ومعروف أنه طعام رئيسي، فإن الآيتين الأخريين المتماسكتين تتحدثان عن الثمر من ناحية والنخيل والأعناب من ناحية أخرى، ولا نستطيع أن نقول عن الأعناب وثمر النخيل إنهما رئيسيَّان في منزلة الحبوب.

وقد جانس النخيل والأعناب، اللذين يقلان ضرورة عن الحبوب، عملية تفجير العيون التي نعتقد أن للإنسان أحياناً دوراً في الكشف عنها. وقد جانس الحبوب إنزال الغيث من السماء الذي فهم ضمناً في الآية الأولى.

ومما قد يدل على ما قلنا من أن الآيتين تتحدثان عما هو أقرب لأن يكون بهجة للعين، هو أنهما تتحدثان عن الكثير والكثير من الجنات وفي بيئات

مختلفات. فالجنة التي تنبت العنب على سبيل المثال، لا تنبت بالضرورة النخيل، على الرغم من أن بعض البيئات تجمع بينهما. كما أنهما تتحدثان عما تعمله أيدي الناس في الجنات. وحيث إنَّ الحديث يتعلق بالثمار وما جرى مجراها، فمعنى هذا أن قوله تعالى: ﴿ **وما عملته أيديهم** ﴾ مرتبط إلى حد كبير بالأنواع التي تتخطى الضروري إلى ما يقع تحت الاختيار طعاماً وفاكهة في تلك الجنات المعروشات وغير المعروشات التي تبتهج بها العين ويرتاح لها الفؤاد.

واعتقد، والله أعلم، أن الضمير في قوله تعالى: ﴿ **ليأكلوا من ثمره** ﴾ يعود إلى النخيل.

وكل هذه النعم التي منَّ الله بها على الإنسان، والتي نصت عليها الآيات الثلاث، خليق بها أن يعقب عليها بالقول: ﴿ **أفلا تشكرون** ﴾ .

وحيث إن هذه الآيات إنما جاءت بقصد حمل الناس على التفكر والتدبُّر فالسير في الطريق الصحيح، لذا جاءت بعد ذلك الآية التعقيبية المنزهة لله عز وجل عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، قال تعالى: ﴿ **سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾.

وبما أن هذه الآيات تتحدث عن الأرض ونعمة المكان، لذا كانت الإشارة في هذه الآية التعقيبية إلى الأرض ابتداء ﴿ **مما تنبت الأرض** ﴾.

وإن مجيء لفظ الأزواج دون سواه، دليل على أن هذه الأزواج كلها تشمل عنصري التذكير والتأنيث. قال تعالى في سورة الرعد مثلاً [1]: ﴿ **وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾.

جاء في ظلال القرآن [2] بشأن هذه الآية في سورة يس: «وهذه التسبيحة

(١) آية، ٣.
(٢) ٢٣/٢٣.

تنطلق في أوانها وفي موضعها. وترتسم معها حقيقة ضخمة من حقائق هذا الوجود. حقيقة وحدة الخلق. وحدة القاعدة والتكوين. فقد خلق الله الأحياء أزواجاً. النبات فيها كالإنسان. ومثل ذلك غيرهما ﴿ **ومما لا يعلمون** ﴾. وإنَّ هذه الوحدة لتشي بوحدة اليد المبدعة، التي توجد قاعدة التكوين مع اختلاف الأشكال والأحجام. والأنواع والأجناس، والخصائص والسمات، في هذه الأحياء التي لا يعلم علمها إلا الله، ومن يدري فربما كانت هذه قاعدة الكون كله حتى الجماد! وقد أصبح معلوماً أن الذرة ـ أصغر ما عرف من قبل من أجزاء المادة ـ مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربي، سالب وموجب يتزاوجان ويتحدان! كذلك شوهدت ألوف من الثنائيات النجمية، تتألف من نجمين مرتبطين يشد بعضهما بعضاً ويدوران في مدار واحد كأنما يوقعان على نغمة رتيبة! ».

والحقيقة أننا نستطيع أن نقول بشأن الترتيب للعناصر الثلاثة في قوله تعالى: ﴿ **مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾. إنَّه هو الترتيب الذي تتمناه كل نفس. فيما أن الحديث يتعلق بالأرض في مجموعه، لذلك تقدمت الإشارة إلى نبات الأرض. ومن الطبيعي بعد ذلك أن يسبق الحديث عن الذي يعلم الناس، وهو الأنفس، على الحديث عما لا يعلمون. وقد قال تعالى: ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ (١).

آية الزمان:

بعد الانتهاء من الحديث عن آية المكان الذي يعيش فيه الإنسان والذي يرتبط به ارتباطاً قوياً واعياً ينتقل الحديث إلى آية الزمان الذي يحتاج بشأنه الإنسان إلى شيء أكبر من الإدراك كي يحس بحاجته للزمان وبقيمته. فكأن ترتيب الموضوعات يراعي الشيء الأبسط بشأن الإنسان فالبسيط وهكذا قال

---

(١) سورة الإسراء، ٨٥.

تعالى: ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون. والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون** ﴾.

فمن آيات الله تعالى الدالة على وحدانيته وجلاله وقدرته الليل والنهار والشمس والقمر. وأولى آيات هذه المجموعة تتحدث عن الليـل والنهار. وعلاقة الشمس والقمر بهما واضحة. قال تعالى: ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون** ﴾. ومن البين أن الآية الكريمة تعرض لآيتي الليل والنهار من زاوية أن النهار متقدم وأن الليل يخلفه. وجملة نسلخ التي استعيرت في هذه المناسبة، تنزل ضوء النهار منزلة الجلد الذي يسلخ من على الحيوان. وتتم هذه العملية بشأن النهار، بقدرة القادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وإذا كانت الآية قد نزلت ضوء النهار منزلة الجلد من الحيوان، فإنها نزلت ظلام الليل منزلة الحيوان ذاته. وكأن الآية الكريمة تقول لنا: إن الظلام هو الأصل والأساس وهذا ما يقول به العقل أيضاً. فلولا وجود الشمس دليلاً على النهار لعاشت الإنسانية في ظلام سرمدي. ولكنه العزيز العليم الذي جعل كلاً من الليل والنهار والشمس والقمر يسير في حركة منتظمة وخط سير محدد المعالم، جاء في سورة القصص [1] قوله تعالى: ﴿ **قل أرأيتم إنْ جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون. قل أرأيتم أن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون. ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾. وجاء في سورة الفرقان [2]: ﴿ **تبارك**

---

(١) الآيات ٧١ ـ ٧٣.

(٢) آية، ٦١، ٦٢.